العلبة والكتلة

قصة بقلم سركون بولص

دخل الوطواط الى الغرفة وأخذ يطير في دوائر عمياء ويصفع الجدران بجناحيه . وخفض ادمون رأسه وهو راقد في السرير ، خائفا من أن يمسه الوطواط الذي كان ، بين حين وآخر ، يقترب منه في طيران غير مسؤول حتى ليسمع رفيف جناحيه الجلديين ويرى رأسه الضفدعي الاصلع وهيكله الفرائي . وأغرقه الاشمئزاز والخوف في موجة واحدة وقد استيقظت لديه جميع مخاوف الطفولة ، ولاحقته فكرة أن الوطواط اذا لمس وجها آدميا فانه يلتصق به ولن يفصله عنه شيء. واذا فصل ، وذلك بواسطة مرآة ذهبية ، فمعه قطعة من اللحم على الاقل : أقوال شعبية ، الا أنها تجسدت الان وواجهته مع دخول الوطواط الى الغرفة . ونهض باحتراس فوق مصراع النافذة وازاح الستارة الى اليسار بعنف . وفي الضوء الحاد الذي تدفق الى الداخل ذعر الوطواط كثيرا واخذ يطير متخبطا كيفما اتفق حتى صادف النافذة المفتوحة فانحدر في فراغها . جلس ادمون في السرير ثانية . كان فوق رأسه اطار خشبي يضم صورة مسيح عار باللون الاسود . وهو حفر على خشب ، لذلك كانت تقاطيعه بارزة والظل طاغيا حول رأسه ذي الهالة . وحدق ادمون في وجهه بوجل : كانت عيناه مرفوعتين الى أعلى ، ناظرتين الى شيء غير ظاهر . وكان المسيح مدهوشا بعمق . وهبط أخيرا بعينيه الى صدره البارز الضلوع ، كصدر صياد دبغه المناخ وماء البحر .

كانت علبة سجائره قد فرغت . وعليه ان يهبط . ولانه جائع ، لم يؤخر نهوضه . وتناول سرواله ، وفتحه ، ووضع ساقيه في المكان المعد لهما في السروال . وربط حوله الحزام بشكل محكم . وارتدى قميصه ثم سار ، بلا أحذية ، الى الثلاجة ففتحها . هب عليه من جوفها هواء بارد ، ومد يده الى علبة من الفاكهة المحفوظة كانت مفتوحة ، نصف فارغة . وشعر بالكراهية بغتة لانه كان قد اشترى فاكهة معلبة . وغمره احساس بأنه مخدوع من الجذور . ولكنه أكل . وامتلأ بالجوع رغم ذلك ، ثم فاض مذاق الفاكهة السكري بين أسنانه. ولكنه بعد ذلك ألقى بالعلبة الفارغة تقريبا في القمامة بغيظ ، وغسل وجهه وأصابعه في المغسلة .

في الشارع سار بنفس الخطوة التي اعتاد عليها كل يوم . وانتظر ان يداهمه الغضب التدريجي على السيارات المارة ، وهو ما يحدث في كل يوم . ولكن المساء كان بعيدا والسيارات قليلة . وبدت ، الآن ، كحيوانات تهدر بالفة وتتحبب اليه . واجتاز الشارع الخالي الى جانبه الآخر ، ودخل الى محل صغير للسندويج . اقترب منه رجل أشيب ، فقال ادمون : ـ واحد مخ .

ونظر الى الخارج ، وقت السينما لم يحن بعد ، لذلك كانت جموع من الناس تتسكع حول ابواب السينما المشرعة . شبان يرتدون نظارات طبية . احدهم اصلع ، ذو تقاطيع كئيبة وفظة . وامرأتان او ثلاث . شرب ماء من كأس ، واغمض عينيه. في لحظة واحدة كان الوعي بالضآلة يفحمه ، يزيل الراحة الفجة التي تحيطه كموسى حادة تزيل الشعر من ذقن نامية . لحظة كهذه ، حين ينظر الى أناس واقفين . وحين يكون ، في الاغلب ، جالسا ، ميتا ، بلا أطراف حية . ويشعر آنذاك، برعب رجل استيقظ فجأة برجلين مقطوعتين . امتدت يد تمسك بالمخ الحيواني الموضوع في صحن . ولكنه شرب الماء ثانية ، وابتلع أفكاره معه . ونظر الى الخارج .

بورجوازي ، مثقف بورجوازي صغير ينظر الى البشر الواقفين في الخارج ، ولكن من خلال باب زجاجي . وأكل بشراهة ، غاضبا على الخبز وقابضا عليه بيد متشنجة . ولكن غضبه الحقيقي كان في أسنانه . وبدل أن تعض لسانه أو شفتيه أخذت تنفرز بلا شفقة في الطماطم المفرومة ، في الخضروات ، في اللحم ، في الخبز ، وتطبق على حافة الكأس المليئة بماء غير قابل للعض . لم يكن هناك غير بورجوازيين مقنعين ينتشرون كفئران متأنقة في الطرق والمحلات المحرمة على الفقراء . ورائحتهم تدخل الى بيوت الاحياء الحقيقيين ، حيث يحدث العذاب بالغريزة ويولد بين أرجل النساء الصفراوات الدائمات الحبل . ضاق به المطعم فجأة . وأغثته روائح الاغذية ، وخصوصا الامخاخ الحيوانية التي كان الرجل الاشيب يأخذها في يده ويلقي بها في الثلاجة أو المقلاة ، مخا بعد آخر . ونهض فأعطى حسابه وخرج من المطعم الى السقيفة الامامية لدار السينما، مصدوما بقدرته المفاجئة على الغضب بهذا الشكل المدمر . سرت دمدمة خافتة بين الجمهور الواقف أمام الابواب ، وبدا أن آخرين يخرجون من اماكن مجهولة وينضمون اليه . وبالفعل ، رأى ادمون بدهشة عددا آخر من الناس كان مبعثرا حول ناصيتي الشارع يسرع ويقترب من حيث يقف . ولم تكن لديه ساعة ، ففكر بأن موعد ابتداء العرض قد حل وهو السبب في هذا . وتحرك من مكانه ، مداعبا فكرة سينما نهارية . وارتفعت الدمدمة من حوله ثانية . ثم سمع ادمون بوضوح صوتا قويا يهيب فجأة : ـ « أيها الاخوان ، أيها الاخوان . » والتفت الى يساره ، كان الحشد قد تجمع على نفسه فجأة وغدا كتلة متماسكة دائرية الشكل تقريبا . وببطء ، برزت من وسط الكتلة رايتان كبيرتان من الخيش الابيض ، ودهش ادمون حين اكتشف انهما شعاران . فقد كانت لكل منهما ساريتان يمسك بهما شخصان من الواقفين . واقترب أكثر بحيث كان الآن يقف مصاقبا لحافة الكتلة البشرية الصامتة . وخفقت القماشتان ، مضطربتين بضعف ، كشراعين لم يلاقيا ريحا كافية.وتصاعد الصوت ثانية وهو يتكلم . كان الصمت العميق يرين كطبقة من الطباشير على الكتلة . وفي نهاية الصوت المتكلم ارتفعت صيحة موحدة : « يا ! » وكأنها كانت الريح المطلوبة ، فلم تعد السواري الاربع تحمل مجرد قطعتين من الخيش المطوي ، بل انشدت كل ساريتين معا الآن ، مجذوبتين بثقل يدين مليئتين بالتصميم ، وانفتحتا على سعتهما. وقرأ ادمون على احداهما : ـ « اطلقوا سراح السجناء السياسيين » . وتحرك الحشد فجأة . انساب كقطعة طافية في الماء ، مع مجرى الشارع . ولم يكف الصوت العميق الذي كان بمثابة العتلة المحركة لهذه الآلة الحية من الاصوات والروائح والغضب المشترك . والبؤس ، اكتشف ادمون أخيرا . والبؤس . وتبخرت آخر شكوكه تحت وطأة موجة حارة صعدت الى حنجرته ، ولم يعرف ، للحال ، ما هي . لم يهتم كثيرا . وبالرغم من أنه كان لا يزال يصطدم في سيره بحافة الكتلة المتحركة ، الا أنه كان الآن مجبرا على ذلك : كانت الكتلة قد قست وتصلبت كأنها عضلة واحدة ، وأخيرا استطاعت ذراعه أن تلج فجوة بين شاب صامت يسير خافض الرأس ورجل متوسط العمر ذي شوارب كثيفة كان يصيح بحقد جاف ، مبحوح الصوت . والتحم برائحة العامل الذي كان يصيح ، من جهة ، وبصمت الشاب المثقل بالادانة . لم يكن حتى الآن قد تنبه الى معنى الخطبة المستمرة التي كان لعباراتها المهيجة وقع خطوات الحشد ، ولكنه أخذ يبصر الاشياء بوضوح أشد الآن . واصطدم بمرفق الشاب الموضوع في جبيرة مخفاة تحت

القميص ، كما اكتشف . كانت قد حدثت اذن ، أشياء سابقة لم يتح له هو ان يكتشف وجودها الا الآن . وادهشه بعمق ، ان يسير وسط هذا الحدث ، محاطا بمضاعفات أشياء سابقة ومقبلا على حوادث جديدة . حتى هذه المسيرة ربما كانت تابعا آخر في سلسلة لا تنتهي. وكانت السلسلة ، حتى الآن ، تحدث بدوني . تحدث بدوني تماما تماما . أخذ الشارع يغلي ويهدر . والسيارات ، المحملة بجميع موظفي العالم ، تقف صاغرة وتتطلع بواسطة العيون العديدة المفروزة في أجوافها ـ الى الحشد . وغدا الآن ذا ضجيج حقيقي . من المجرى المستقيم للشارع كانت الاصوات تتطلع ، ثم تفيض ، بغتة ، في الازقة والحواري الفامضة المليئة بالاطفال . وروائح أشجار تتقدم نحونا . استدار وجه الشاب المثقل بنظارة مبللة بالعرق ، وأخذ يتقدم ووجهه الى الحشد ، سائرا بالعكس ، منظما الاطراف المنفلتة بصوته الذي لم يعد يسمع الآن الا وهو ممتزج بضجيج غريب أدرك ادمون بغتة أن صوته هو يشترك فيه . عدة فتيات كن يتحركن بايقاع واحد ،صارخات بأصوات مبحوحة ، وشعرهن مبتل على جباه جميلة . كن الآن أجمل ، بمزيج من جمال الاطفال وحركات الام حينما ترعى . كان شيء ليس ظاهرا بعد ، يجعلهم يقتربون ، متماسكين ، مصممين . ونظر الى الرصيفين . وسط الهدير كان الواقفون يتفرجون وللحظة ، أفردوا في داخله أكياس غضبه وأحقاده الشخصية بشكل متمايز ، جعلوه يراهم بعمق المصيبة أو لحظة الفشل الساحق ، فأحس بأنه يعرفهم جيدا وأنه سيهجم عليهم بوحشية في أية لحظة . ومسه الشاب الذي كان لحزنه تأثير انساني فائق . كما يصب فوق قرحة جلدية . والآن كانت عيون المتظاهرين تتجه نحو الآخرين . وانضم شبان اليهم ، ولكن أكثريتهم ، البشر المعلبين في بدلات والمقيدي الرقاب بأربطة أبدية ، كانوا يطفئون الرعشة الطاغية التي كانت توغل حتى في أشجار الشارع، بجدالهم الخانع مع أنفسهم ، الواضح في ملامحهم التي كانت في الاخير، دائما ، تستكين تحت وطأة التفكير بالذات والزوجة ، أو الوظيفة والمنفعة الخاصة . لم يكن شيء يجدي ، لم يكن هناك أمل الا في تعريتهم من مشنقة الرباط والمنفعة ، ومن وضعهم المتلبد على شكل علاقات وملابس وخوف من عدم الامان وعدم الراحة ، تعريتهم وتحطيم هذا الزجاج الذي ينظرون من خلاله الينا . ادمون كان الآن يراهم عراة . وقد حدث آن نفض ذلك الغشاء الذي يتقزز منه الآن ، والذي لم يعد يراه الآن . هل كانوا بحاجة الى دافع ؟ تكاثفت رائحة الشجر حين اختلطت برائحة العرق الحارة المنبعثة من الآباط وتجاويف الجسد الاخرى وشعر النساء الكثيف الذي أخذ يبدو له كأعشاش ، مبللة بالدمع وليس بالعرق . كانوا يدخنون على الارصفة وينظرون ، وأفزعه أن يرى نفسه بشكل مفاجيء وهو واقف هنالك ، يرتدي ملابس تضعه ضمنيا في صفهم وتجعله يسير في شوارعهم نفسها ويتحدث معهم فقط في اماكنهم الخاصة ، في السينمات والمقاهي ، في الاماكن التي لا معنى لوجودها الا لانهم هم يفضحون فيها رغباتهم الزائدة والمريضة ، ولا شيء غير ذلك ، لا شيء غير ذلك اطلاقا . كان من الفظيع أن يرى نفسه في شخص أحد الواقفين ، يدخن بتلك النظرة التي تشمل كل شيء وبذلك لا ترى شيئا . صحيح جدا أنه لم يكن ينظر الى أي شخص أو شيء لذاته ، وأنه لم يكن أكثر من ذلك الموظف الشاحب الذي يبدو على وجهه الاقتناع التام بأن سلامته تكمن في أن يظل في مكانه ، لكي يستطيع بعد ذلك أن يصل كما هو الى البيت . أن لا يصطدم أبدا ، أن لا يعارض أبدا ، أن يكون ميتا ونظيفا أبدا . اختفت الاشجار وانطلقت ثلاث رصاصات فجأة .

كحوض يتلقى ثلاثة أحجار ، تقوض الحشد من الداخل . واندفعت نحوه بقع صفراء تلوح بهراوات . وسيارة غير أمينة تقترب بمواجهة الحشد وتوجه عينيها المطفأتين الشريرتين نحو ظهر الشاب الذي يسير بالعكس ، وفجأة يستدير . ويرفع يديه أفقيا وهو يتكلم، كصورة مصلوب . انتشرت البقع وسط الفوضى . وكان الحشد الآن ينشر أطرافه في حارة هنا ، وبيت هناك ، أطراف متوترة تخفق كأطراف أخطبوط مذعور بريء يجرح بقوة . حتى الآن لم يكن هو غير نقطة . ولم تكن تتحرك . ولكن الدفقة وصلته . اندفعت نحوه كتلة عمياء ، أمرأة ذات عباءة سوداء ، مفتوحة العينين والفم ، أسقطته بيديها القاسيتين المعتذرتين وانفلتت فوقه أقمشة سوداء لام ، لارملة، ورأى من الاسفل مدة برهة ، العالم ، فضاء مقدسا خاليا الا من كتلة سوداء تهرب عن يمينه . لم تكن هناك حتى أشجار . ولكنه وثب ، جازا تلك البرهة السوداء كما يجز حبلا يربطه . وأخذ يركض والحشد يتغذى منه ويتقبله ويعطيه هذا الشعور الموجز الدقيق بأنه يغذيه ويتغذى منه ، وبينهما حبل سري من أحشاء . لم يكن هناك الآن غير عشرات الشرطة الصفر . وبعضهم يمسك بمتظاهرين . والى يساره منفذ . طويل . يصلح . ملاته الغريزة كدخان أبيض يخفي أية نتوءات أخرى . وفي ركضه اصطدم بمرفق ، وسمع صوت سقوط معدني أجوف. وفي اثره صرخة . التفت برأسه وهو يركض . كان رجل يجمع قطعتي كاميرا من الارض . والجنون واضح في وجهه . هل سيلاحقه ؟ بل بقي. كان ادمون الآن يلهث في مناخ النهر . وعن يمينه ظهر رجل فجأة.استوقفه، سأله . واكتشف ادمون ملابسه البيضاء . نادل في بار . وانفلت على مرأى لطخة صفراء تدب في بداية المنفذ ، وأمامها الشاب ذو الجبيرة، يركض ببأس . الى اليسار كانت براميل كبيرة وأكوام من الحجارة في واجهة بناية ناقصة . سار ببطء ، قاطعا الامتار الخمسة حتى وصل الى البراميل . خدمته ظاهرة البطء لان الشرطي لم يشك به . ثم دخل الى البناية . لم يكن الآن يصله غير دبيب بعيد لاربعة أحذية ، اثنان منها ثقيلان . وامتلأت خياشيمه العصبية برائحة اسمنت حديث. وكانت هذه الرائحة تجعل جذور أنفه تنفر وتهتاج دائما . وهناك غائط في الزوايا ، بشري ، وآخر لكلب أو قطة . عبرت الاقدام الاربع . واثنتان منها يائستان . أحب الشاب بشكل فجائي وأعمى . وحرك يده وكأنها مخفاة في جبيرة ، ولا تزال تتألم من ضربة هراوة . وكانت تمنعه من الركض . كانت تسبب موته وتدينه ، وهي جزء منه . وقبل أن يختفي وقع الاقدام كان حبه للشاب المصاب يفيض في أسنانه وجذور أنفه ويصارع رائحة الاسمنت والغائط ورائحة المخلوق الاصفر الحامضة . وكأنه ، والشاب يمرق تجاهه ، امتص منه رعبه وحاجته الى الامان وأضافهما الى رعبه الخاص وحاجته الخاصة . وخرج من البناية . في حوض النهر كان شخصان يركضان في حلم . وميز الشاب يركض بنفس التهدل ، ولكنه الآن يركض بحيرة غريبة ، وبأستدارات عشواء كطائر صغير في غرفة . سوى أنه لم يكن يستطيع أن يطير . ومن أعلى ، رآهما . . في نصف النهر الذي كان يابسا وخاليا من الماء ، كانت هناك نباتات وحشائش تعوق السير . وتمادى في عاطفته العمياء ، لم يكن مستقلا الآن . كان مقيدا ، وبنوع من الشجن الاسود الذي يتحول الى فرح في قمة اليأس . كذلك حدث هذا التحول : انه لم يكن ادمون . كان هو ذاك الظل الذي يركض في الاسفل . وبلهاثه يمتص العالم الى رئته المفتوحة ويمتزج بهوائه . والنباتات تلحس سرواله وحذاءيه . تعوقه أحيانا ولكنها تستعطفه وتدعوه من الاسفل ، كجميع الاشياء البريئة السجينة في أماكنها. ولا يعود يهم أن يسمع وراءه هذا الدبيب الابدي . فهو الآن ليس ضده . انه يدفعه الى الاندفاع وتقصير المسافة بينه وبين النهر . بينه وبين هدفه البعيد . وانحدر ادمون الآخر ، الواقف في الشارع أعلى الحوض ـ الى حيث كان يركض هو نفسه أيضا بثقل يده المحطمة المصلوبة على جسده . وبين الاثنين ، كان الظل الاصفر يفقد تأثيره ومعناه . كانا هما اللذين يسببان حركته . أصبح واعيا بهذا وهو يركض ـ وعيا أبيض عميقا يحتضن الحوض كله ، والجسر البعيد الذي أوقظه الضوء . وكان الثلاثة يركضون نحو النهر الذي لا يتوقف عن الجريان .

بغداد

سركون بولص